كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

بحث علمي بعنوان

((المشروع الوحدوي المرابطي المغربي في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي))

((The Moroccan Almoravid Unitary Project in the Middle of the Fifth Century H/ Eleventh Century AD))

إعداد الطالب: موسى محمد السلوم

المشرف العلمي: أ. د. خليل الحسين

ملخص البحث

لقد تناول البحث الحديث عن إشكالية التجربة الوحدوية المرابطية في الدراسات الحديثة، وأومأت إلى المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي، وقد تم التنويه عن ارتباط المشروع الوحدوي المرابطي بأوضاع دار الإسلام، إضافة إلى الحديث عن أثر العوامل الداخلية والصراع مع دار الحرب في ميلاد المشروع الوحدوي المرابطي المغربي، وذكر البحث ما هي الشروط

الايديولوجية والاقتصادية والاجتماعية لميلاد المشروع الوحدوي المرابطي، وأخيراً تحدث البحث عن تعثر التجربة الوحدوية المرابطية.

Abstract

The research addressed the problem of the Almoravid unitary experience in modern studies, and referred to the unitary project at the official and popular levels. It was noted the connection between the Almoravid unitary project and the situation in Dar al-Islam, in addition to talking about the impact of internal factors and the conflict with Dar al-Harb on the birth of the Moroccan Almoravid unitary project. The research mentioned the ideological, economic and social conditions for the birth of the Almoravid unitary project, and finally the research talked about the stumbling of the Almoravid unitary experience.

1- مقدمة:

إذا كان كل بحث يلزم صاحبه بتقديم دلالات الاشتغال فيه دون سواه، فثمة من الحوافز والمبررات العلمية ما يجعل من «**المشروع الوحدوي المرابطي المغربي في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي**» موضوعاً جديراً بالتناول من الناحية التاريخية، بالنظر إلى التطورات النوعية التي عرفها البحث التاريخي المغربي موضوعاً ومنهجاً ورؤية.

وفي سبيل التعريف بصدد هذا الموضوع، يجدر بالبحث أن يطرح بعض الأسئلة المنهجية التي تسهم في إضاءة بعض جوانب الموضوع والإحاطة به شكلاً ومضموناً. ايماناً بأن أي بحث علمي، في أي معرفة، يتطلب جمع المعطيات، وضبط المفاهيم وتحديد الأهداف ورسم الغايات، وذلك حتى يستوي العمل على سوقه ويؤتي ثماره.

فما أهمية الاشتغال على المشروع الوحدوي المرابطي المغربي؟ وما حظه من الدراسة؟ ما هي إشكالاته؟

تتجلى القيمة المعرفية للموضوع الذي اخترناه عنواناً للدراسة بكونه يندرج في صميم البحث والتنقيب في حياة المجتمعات القديمة والكشف عن صيرورتها وحياتها اليومية في شأن الاقتصاد والاجتماع والثقافة وهي الجوانب التي شكلت معالمه التاريخية وأثرت في فصول أحداثه.

ومن الملاحظ أن الموضوع المختار كما سيتبين ينتمي في مجاله إلى المغرب الإسلامي ويؤطره زمان يدخل في إصلاح التحقيب الزمني في نهاية الحقبة الوسطى.

كما أن اختياره أتى في إطار الاهتمام بتاريخ المغرب والعصر الوسيط الذي وقف على بعض قضاياه وإشكالاته خلال مرحلة الدراسة.

ولا يخفى على المتخصصين في تاريخ المغرب الإسلامي مدى الأهمية التي تشكلها البنى التحتية للمجتمعات في الكشف عن تجليات التاريخ السياسي والثقافي والذهني لذلك المجال المتسع مكاناً وزماناً.

وهذا التوجه المنهجي الذي حرص البحث على جعله مفتاحاً للموضوع يحمل على عاتقه مهمة استجلاء الأدوار التي شغلها المشروع الوحدوي المرابطي المغربي والتي أسهمت في توضيح بعض من المعالم الأثرية في المغرب خلال الحقبة قيد الدراسة، إلى جانب الدراسة المشتغل عليها.

وليس هناك حاجة إلى الإدلاء بالكثير من التفاصيل بخصوص مسوغات اختيار الحقبة الزمنية الممتدة منتصف القرن الخامس / الحادي عشر الميلادي حيزاً للدراسة، إذ من المعلوم أن امتداد هذه الفترة يغطي مرحلة من تاريخ العصر الوسيط.

والملاحظ أن طبيعة الموضوع قد تبعد كثيراً عن الاهتمام بالتاريخ العسكري الذي طغى على تاريخ الحقبة والمتميز مثلما هو معروف بالصراعات التي دارت فيما بين القبائل في الداخل أو بين القوى الطامحة إلى قيادة المنطقة في الخارج، ولا سيما بعد تراجع الخلافة العباسية وما تلا ذلك من نتائج أسفرت عليها بعدّها نقلة نوعية آذنت بتمزق كبير في الجسم السياسي في المغرب وأدت إلى ظهور زعامات سياسية تنازعت على تركت الخلافة العباسية في المغرب، وهو ما أدخل المنطقة كلها بما فيها حوض البحر الأبيض المتوسط في حسابات مصلحية زادت من حدتها، المشاكل الداخلية من ثورات وهجرات ونزوح موجات بشرية وأوبئة، أثرت في مختلف الأنشطة الاقتصادية المزاولة وعرّضت المنطقة برمتها إلى مزيد من التهديدات والتحرشات الخارجية.

ومن الطبيعي أن ينعكس الوضع العام داخل المغرب، حيث ظلت المنطقة تقاوم من أجل البقاء مستفيدة من توافر بعض المقومات وبعض الظروف المساعدة.

وتبقى الإشارة إلى أن الموضوع الذي وقع عليه اختيار الباحث عنواناً لهذه الدراسة لم يبلغ إلى حدود علمنا أنه شكل اهتماماً مركزياً لأي عمل أو بحث أكاديمي خلال الفترة المبحوث فيها، اللهم إذا استثنينا بعض الأعمال التي احتوت بعض مباحثها أو فصولها على جزء أو إشارة لموضوع المشروع الوحدوي المرابطي المغربي ولكن في سياق التاريخ العام.

وإيماناً بأهمية السؤال في انتاج المعرفة، وتوليد المعاني، وإيجاد الدلالات للأشياء، مما يعني فتح منافذ وعوالم ممكنة للبحث، فقد وضع الباحث مجموعة من التساؤلات عدّها مفيدة في الإجابة على قضايا الموضوع وإشكالاته الرئيسية.

فما التمثلات الذهنية والفكرية لموضوع « المشروع الوحدوي المرابطي المغربي» في الفكر العربي الإسلامي؟ وهل « لنذرة » المقومات داخل المجال الطبيعي في المغرب أثر في عدم الاهتمام المتواصل بمثل هذه الموضوع؟ ثم هل يسمح لنا تاريخ المرحلة أن نتحدث عن أسباب المشروع الوحدوي؟ وما هي أهم الدول التي وقفت في وجه هذا المشروع الوحدوي؟ وماهي أهم العوامل التي ساعدت على نجاح هذا المشروع؟ وهل تمكن المرابطين من تحقيق وحدة المغرب بالكامل؟

ولما كانت المعرفة تبدأ بالسؤال، فإن طبيعة الموضوع استلزم التنقيب في مختلف المصادر لإيجاد الأجوبة الشافية عن تلك التساؤلات الافتراضية التي قد تسهم في بناء الموضوع بناءً سليماً.

إشكالية البحث:

يطرح البحث العديد من الإشكالات أهمها: إشكالية التجربة الوحدوية المرابطية في الدراسات الحديثة؟ وما هي أهمية المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي؟ هل ارتبط المشروع الوحدوي المرابطي بدار الإسلام؟ وما هو أثر العوامل الداخلية والصراع مع دار الحرب في ميلاد المشروع الوحدوي المرابطي؟ ولماذا تعثرت التجربة الوحدوية المرابطية؟

أهمية البحث:

إن مجالات الدراسة التاريخية في تاريخ المغرب العربي الإسلامي لاتزال خصبة لا تنضب وتتيح الفرصة لمزيد من الأقلام لتبرز النشاطات الفكرية والحضارية الواسعة النطاق وعلى الرغم من كثرة الدراسات التاريخية التي تبحث في تاريخ المغرب العربي الإسلامي وشموليته للعديد من المواضيع فإن ما كتب حول موضوع المشروع الوحدوي المرابطي المغربي لا يعدو كونه إشارات وإيحاءات منتشرة ومتفرقة في بطون بعض الكتب التي كتب لها البقاء.

ومن خلال هذا البحث سيتم الكشف عن أهمية هذه التجربة الوحدوية المرابطية وستكون هذه الدراسة اسهام جديد في حقل الدراسات التاريخية في تاريخ المغرب الإسلامي .

الهدف من البحث:

غاية البحث توضيح أهمية هذا المشروع الوحدوي المرابطي المغربي.

وعن أهمية المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي. وسيقف البحث على أهم أسباب تعثر التجربة الوحدوية المرابطية.

منهج البحث:

لقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي الاستقرائي وتحليل النصوص التاريخية المستقاة من مصادر مختلفة، الذي يعتمد على وصف الوضع التاريخي للمراحل التي مرت بها التجربة الوحدوية المرابطية، قسمت الدراسة إلى مقدمة ومتن وخاتمة والمتن قسم إلى عدة فقرات وختمت الدراسة بعرض النتائج التي تم التوصل إليها.

1- إشكالية التجربة الوحدوية المرابطية في الدراسات الحديثة:

لم تتعرض أية دولة من دول المغرب في العصر الوسيط لعسف وتحامل الدراسات الأوروبية مثلما تعرضت له دولة المرابطين، بل جرى طمس وإغماط حق هذه الأخيرة في كثير من المنجزات، بما في ذلك تجربتها الوحدوية «الأم» على صعيد المغرب العربي. وحسبنا أن

معظم هذه الدراسات كُرست إما لإبراز «لا حضارية» أهل اللثام الذين وصفوا بـ«ريح الصحراء حين تهب على الغياض النضرة»[1]، والحاصل أن أهم مشروع تبنته الحركة المرابطية، وهو مشروع توحيد المغرب الإسلامي، كاد أن يهمل بالمرة مع أنه شكل حجر الزاوية في برنامجها السياسي.

صحيح أن بعض الدارسين الغربيين أشاروا في سياق كتاباتهم عن هذا الموضوع، إلا أنها كانت في الغالب الأعم إشارات خجولة، فضلاً عن أن التفاسير المقتضبة التي استعملت لتحليل هذه الظاهرة التاريخية حادت عن الصواب وما يصدق ذلك تفسير يوسف أشباخ لسيادة المرابطين على المغرب العربي بأنه نابع من موقف « قومي» تبناه البربر، رغبة في الانعتاق من السيطرة العربية[2].

وإذا كانت معظم الدراسات العربية قد أجمعت على أن المرابطين قد حققوا وحدة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط فإن الحاجة لازالت ماسة إلى دراسة هذا المشروع الوحدوي، لا كمشروع سياسي معزول عن الظاهرات التي أفرزته، بل كبنية متكاملة مؤطرة في سياق منظومة شاملة لها قوانينها وآلياتها، ومن ثم ضرورة البحث عن هذه الآليات، عن طريق تفكيك تلك المنظومة، وإعادة ترتيبها بما يتسق مع قوانين تطور المغرب، وذلك عن طريق إبداء ملاحظات وطرح تساؤلات تهدف إلى تأصيل المشكلة أكثر مما تسعى إلى الإجابة النهائية.

2- المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي:

أ- على الصعيد الرسمي:

إن أول ما يمكن ان يلاحظ في المشروع الوحدوي كونه حاضراً على الصعيد الرسمي والشعبي على السواء. فعلى الصعيد الرسمي جعلت الدولة المرابطية مشروع الوحدة على رأس

(1) - أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الخانجي، القاهرة، ط2، 1958م، ص493.
(2) - أشباخ: تاريخ الأندلس، ص476.

برنامجها السياسي، ووظفت كل الوسائل الممكنة لتحقيق المغرب الكبير، بل دافعت عن هذه الوحدة عندما تصدت للخطر النصراني المنبعث من صقلية.

ويكفي أن علي بن يحيى أمير المهدية[1]، استعمل ورقة التحالف مع الملثمين سلاحاً لتهديد

روجار أمير صقلية[2]، كما أن الخطر الموحدي الذي دهم المغرب وجد في الحماديين

[1] - علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس: لما توفي يحيى وقع الاتفاق على إنفاذ كتاب إلى ابنه علي يستقدم فيه من مدينة صفاقس مزواً على لسان أبيه: وأنفذ في الوقت والساعة، وضبطت الامور وحصنت الابواب بالرجال، وبادر لوقته صحبة أكابر العرب المجاورة لصفاقس، فوصل ثاني يوم وفاة أبيه، وقعد للناس، وخلع على وجوه الدعوة، وأنشدته الشعراء وكانت وفاة أبيه سنة 509هـ/1115م. وتوالت الفتن بينه وبين الأعراب، فكانت حاله معهم كحال أبيه وجده من قبله. واشتد ما بينه وبين روجر الثاني صاحب صقلية، فعاجلته المنية وكان شجاعاً حازماً، وولي بعده ولده الحسن، وكانت وفاته ظهر يوم الأحد، لسبع بقين من ربيع الآخر، سنة 515هـ/1121م ونقل إلى المنستير. انظر. ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي ت.695هـ/1295م: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س.كولان- إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط5، 1998م، ج1، ص306؛ ابن الوردي، عمر ت. 749هـ/1348م: تاريخ ابن الوردي، جمعية المعارف، القاهرة- مصر، 1879م، ج2، ص28؛ ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد ت.776هـ/1374م: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تح:أحمد مختار العبادي- محمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م،ص81-83؛ ج1، ص306؛ الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط15، 2002م، ص32.

[2] - ابن عذاري: البيان المغرب، ج4، ص67.

طرفاً ثانياً لمساعدة المرابطين إبان محنتهم، ولعل مصرع تاشفين بن علي[1]، في مدينة وهران[2]، في خضم التعاطف الحمادي، يعكس عمق الروابط الوحدوية على الصعيد الرسمي، على الرغم من هشاشة هذا التعاون الذي تعرض أحياناً لهزات عنيفة نتيجة تناقض المصالح.

ب- على الصعيد الشعبي:

أما على الصعيد الشعبي، فإن هاجس الوحدة كان حاضراً شعوراً وممارسة. فعلى الرغم من العداء السياسي الذي كان يظهر من حين لآخر بين أقطار المغرب الإسلامي، فإن الزخم الشعبي كان يتجاوز الإطارات الضيقة، والانعزال السياسي، ولم يكن هذا الشعور الشعبي ناتجاً عن ميل فطري نحو التوحد فحسب. بل كان متجذراً في فكر الفئات الشعبية، خاصة العلماء فالمؤرخون والجغرافيون المعاصرون لتلك الفترة، وحتى الذين جاؤوا من بعدهم، لم يعترفوا بالحدود الفاصلة بين دول المغرب. يقول أحدهم[3]: فالمسلمون حينما كانوا إخوة لاسيما من بهذه الجزيرة ومن بتلك «العدوة» ومصطلح «العدوة»

---

[1] - تاشفين صاحب المغرب أمير المسلمين بن علي بن يوسف بن تاشفين المصمودي البربري الملثم. ولي بعد أبيه سنتين وأشهراً، فكانت دولته في ضعف وسفال وزوال مع وجود عبد المؤمن. فتحصن بمدينة وهران. فصعد ليلة في رمضان سنة 539هـ/1144م إلى مزار بظاهر وهران فبيته أصحاب عبد المؤمن. فلما أيقن الشاب بالهلكة ركض فرسه فتردّى به إلى البحر فتحطّم وتلف، ولم يبق لعبد المؤمن منازعٌ وتوجه فأخذ تلمسان. انظر. الذهبي، محمد بن أحمد ت.748هـ/1347م: العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1985م، ج2، ص456؛ الأتابكي، يوسف بن تغري بردي ت. 874هـ/1469م: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ط1، 1935م، ج5، ص275؛ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد ت. 1089هـ/1678م: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبدالقادر الأرناؤوط- محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1989م، مج6، ص199؛ الاعلام: ج2، ص82.

[2] - ابن أبي زرع، علي الفاسي ت. 726هـ/1325م: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1999م، ص209.

[3] - ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد ت.776هـ/1374م: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامي. تونس، ط1، 1912م، ص3.

لا يقتصر على المغرب الأقصى فحسب في ذهنية المؤرخين، بل كذلك المغربان الأوسط والأدنى[1]،

ويعبر ابن خلدون[2]، عن المجال الجغرافي للمغرب بأنه « جزيرة أحاطت بها البحار من ثلاث جهات» وهو تعريف وحدوي كما يتضح.

أما الجغرافيون فظلوا على غرار المؤرخين ينظرون إلى الغرب الإسلامي كرقعة واحدة رغم اختلاف الأسماء فالبكري يسميها« بإفريقية التي تمتد من برقة إلى طنجة الخضراء» وكان زيري ابن مناد[3]، من الفترة ذاتها يسمى بصاحب الغرب وما يليه. ورغم انتماء المراكشي إلى المغرب الأقصى فإنه يجعل من طنجة في العصر الموحدي «مدينة من المدن المتصلة ببر

---

[1] - عندما ترجم ابن الآبار لعبدالله بن محمد بن يحيى بن فرح بن الزهيري العبدري (ت.540هـ/1145م) ذكر أنه نزل قلعة حماد من العدوة. انظر. ابن الآبار، محمد بن عبدالله ت.658هـ/1259م: التكملة لكتاب الصلة، تح: عبدالسلام الهراس، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1995م، ج2، ص258؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ/1347م: معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، تح: طيّار آلتي قولاج، د.د، استانبول، 1995م، مج2، 965؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ/1347م: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1995م، ج36، ص538-539؛ ابن الجزري، أبي الخير محمد بن محمد ت. 833هـ/1429م: غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2006م، ج1، ص 407.

[2] - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت. 808هـ/1405م: مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى دوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت- لبنان، 2001م، ص83.

[3] - زيري ابن مناد الصنهاجي الحميري: أول من ملك من الصنهاجيين بالمغرب الاوسط. وهو الذي بنى مدينة أشير وإليه تنسب. وأعطاه المنصور إسماعيل تاهرت وأعمالها. وكان حسن السيرة شجاعاً. وأمر ابنه بلكين ببناء ملیانة ومدينة الجزائر والمدية. وكان موالياً لملوك الفاطميين عند ظهورهم وقتل في معركة بينه وبين جعفر ابن علي الأندلسي، قيل كبا به فرسه، فسقط على الأرض، فقتل. مدة ملكه 26سنة وهو جد المعز بن باديس. انظر. ابن خلكان، أحمد بن محمد ت. 681هـ/1282م: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، مج2، ص343-344؛ تاريخ المغرب: ص63-65؛ الأعلام ج3، ص63.

القيروان» في أقصى المغرب. وتقوم شهادات أخرى على أن مفهوم الغرب الإسلامي (العربي) كان يشمل هذا المجال الواسع، وليس المجالات المتباينة. وبديهي أن يشمل هذا المجال عدة أقاليم، ولكن هذه الأقاليم ليست مستقلة عن بعضها البعض، وإنما تكوِّن مجالاً جغرافياً واحداً[1].وذكر ابن عذاري أن حدَّ المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية، التي تلي بلاد المغرب، وحدُّه مدينة سلا. وينقسم أقساماً: فقسم من الإسكندرية إلى إطرابلس، وهو أكبرها، وأقلها عمارة، وقسم من إطرابلس وهي بلاد الجريد، ويقال أيضاً بلاد الزاب الأعلى، ويلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل، وحدها من تيهرت، ويليها بلاد المغرب، وهي بلاد طنجة، وحدها مدينة سلا، وهي آخر المغرب. وإذا جزت سلا، وأخذت إلى ناحية الجنوب، تركت مغرب الشمس يمنةً، وأخذت منها قافلاً إلى القبلة، فتسمى تلك البلاد بلاد تامسنا. ويقال لها أيضاً بلاد السوس الأدنى. وحدها إلى جبل درن. وإذا جزت هذا الجبل، فعن يمينك بلاد السوس الأقصى. ويقال لها بلاد ماسة، ويتصل السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى بلا د السودان، وهي بلاد الزنج. وبلاد الأندلس أيضاً من المغرب[2].

وإذا انتقلنا إلى الطبقات الدنيا «غير المثقفة» نلاحظ أنها نظرت – على طريقتها الخاصة– إلى الحركة المرابطية نظرة الموحد المنقذ. وفي هذا الصدد ذكر أحد المؤرخين أن الأندلسيين «لما رأوا المرابطين قد ملكوا مغرب العدوة، وطردوا عنه الزناتيين، فكأنهم تأنسوا بأبنائهم ورجوا الفرج من تلقائهم»[3]،

(1) - وهذا ما يؤكده تقسيم ابن خلدون للمغرب إلى أدنى وأوسط وأقصى. انظر. مقدمة ابن خلدون: ص83؛ القبلي، محمد: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، 1974م، ص9.

(2) – ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص5-6.

(3) - ابن الكردبوس، عبدالملك التوزري ت. بداية القرن7هـ/13م: تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان، تح: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م، ص85.

كما أن مؤتمر قرطبة الشعبي[1]، يعكس المنظور عينه، وهو مؤتمر تمخض عن القهر الممارس على الرعية التي رأت أنه لا يمكن إنقاذ وضعيتها إلا بإسقاط حكامها «والاتحاد مع المغرب في ظل المرابطين» بعدما رأوا من عدل المرابطين وتطبيقهم لأحكام الإسلام. وها هي الفرصة قد أتت فلا بدّ من اغتنامها وإلا ضاعت إلى الأبد. وكان يقود الشعب في معركته الصامتة قادتها لروحيون الفقهاء الذين حظوا بمكانة مرموقة لدى الأمير يوسف، فكان يستشيرهم في الأمور المهمة، وبما أنهم المحرك الأساسي للشعب ومستودع أسراره، فقد لعبوا دوراً بارزاً في مجريات الأحداث في الأندلس لقد كانوا الوسطاء بين الشعب والأمير يوسف[2].

وربما القبائل المغربية نظرت إلى الحركة المرابطية وهي في بداية تكونها النظرة ذاتها. ولم تكن المعارضة التي واجهتها من قبل الفئات المستضعفة، بل انبعثت من صفوف الزعماء والنبلاء الذين رأوا فيها خطراً يهدد مصالحهم[3]، وتقوم شهادة البكري دليلاً قوياً على صحة هذا التخريج[4].

ولا نعدم من القرائن الأخرى ما يزكي مقولة المدّ الوحدوي الشعبي، ويتجلى ذلك في تبادل الرحلات العلمية، ومنح الإجازات. وخير مثال في هذا الصدد يتمثل في شخصية

(1) - نصرة الله، سعدون عباس: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1985م، ص67.

(2) - نصر الله: دولة المرابطين، ص112.

(3) - محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1956م، ص21.

(4) - البكري، أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز ت. 487هـ/1094م: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص165-166. حيث يقول متحدثاً عن ابن ياسين: « فقام عليه فقيه منهم اسمه الجوهر بن سكن مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أبار والآخر اينتكرا فعزلوه من الرأي والمشورة وهدموا داره».

أبي عمران الفاسي[1]، الذي يمثل معلمة من معالم الوحدة المغربية، فهو مغربي «أصله من فاس وإليه ينسب درب ابن أبي الحاج بطالعة القرويين»[2]. ومع ذلك فقد فضل الاستيطان في القيروان. وعنه أخذ الناس من أقطار المغرب[3]. فكان بذلك شيخاً وأستاذاً لكل أبناء المغرب

[1] - أبو عمران الفاسي موسى بن عيسى بن أبي حجاج الغفجومي(368-430هـ/979-1039م): شيخ المالكية بالقيروان. نسبته إلى غفجوم (فخذ من زناتة، من البربر) وأصله من فاس، من بيت يعرف فيها ببني حجاج. ومسكنه ووفاته بالقيروان. زار الأندلس والمشرق، وخرَّج من عوالي حديثه نحو مئة ورقة، وصنف التعاليق على المدونة ولم يكمله والفهرست. انظر. القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السبتي ت. 544هـ/1149م: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: سعيد أحمد أعراب، د.د، تطوان، 1982م، ج7، ص243-252؛ الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ت. 696هـ/1296م: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة – مكتبة الخانجي، تونس- مصر، ط2، 1968م، ج3، ص159-164؛ ابن فرحون، ابراهيم بن علي المالكي ت. 799هـ/1396م: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة، د.ت، ج2، ص337-338؛ ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص280-281؛ الأتابكي: النجوم الزاهرة، ج5، ص30؛ ابن العماد: شذرات الذهب، مج5، ص153؛ ابن عجيبة، أحمد بن محمد الحسني ت. 1224هـ/1809م: أزهار البستان في طبقات الأعيان، تح: عبدالسلام العمراني الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1971م، ص76؛ مراد، يحيى: معجم تراجم أعلام الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2004م، ص246؛ شلبي، هند: القراءات بإفريقية من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العربية للكتاب، 1983م، ص329-332؛ الأعلام: ج7، ص326.

[2] - ابن القاضي، أحمد المكناسي ت.1025هـ/1616م: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،1973م،ق1، ص344.

[3] - ابن عجيبة: أزهار البستان، ص76.

العربي. وكان لوجاج بن زلوا اللمطي[1]، الذي درس عليه ضلع كبير في تأسيس دولة المرابطين – نواة الوحدة المغربية[2]. ويعتبر هذا الأخير كما هو معروف استاذاً لعبد الله بن ياسين، المنظِّر الأيديولوجي للحركة الوحدوية المرابطية.

وتساعدنا المصادر في سرد مثال يحمل مغزى عميقاً بصدد هذه المسألة، فقد قدم عالم تونسي من توزر هو أبو الفضل بن يوسف النحوي، واستقر في سجلماسة للتدريس بها غير أنه تعرّض للمضايقة والطرد من فقهاء المرابطين، لأنه أقدم على تدريس مادة محظورة هي مادة الأصول. ومع ذلك لم يرجع إلى بلده، بل فضل الإقامة في فاس والاستقرار في مغربه الكبير[3].

---

[1] - الفقيه محمد وكاك ابن زلوا للمطي: من أهل السوس الاقصى، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس فبنى داراً سماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به. انظر. ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي ت. 617هـ/1220م: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م، ص89-92؛ وهناك خلاف في ذكر اسم هذا العالم فقد ذكره البكري، والفرد بل باسم وجاج وذكره ابن الأحمر، وابن الخطيب باسم بوجاج، وذكره ابن خلدون باسم وكاك، وذكره الناصري باسم واجاج، وذكره ابن المؤنس باسم وهاج. انظر. المغرب في ذكر: ص165؛ ابن الأحمر، إسماعيل ت. 807هـ/1404م: بيوتات فاس الكبرا، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص28؛ الحلل الموشية: ص9؛ ابن خلدون، عبد الرحمن ت. 808هـ/1403م: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت- لبنان، 2000م، ج6، ص243؛ ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ت.1092هـ/1681م: كتاب المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، تونس، ط1، 1967م، ص102؛ الناصري، أحمد بن خالد ت. 1315هـ/1897م: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، تح: جعفر الناصري- محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997م، ج2، ص6؛ بل، الفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط3، 1987م، ص229.

[2] - مؤلف مجهول: مفاخر البربر، تح: عبدالقادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2005م، ص145.

[3] - ابن الزيات: كتاب التشوف، ص98؛ القبلي: مراجعات حول، ص19.

ويترجم ابن القاضي، لمحمد بن داوود بن عطية (ت.525هـ/1131م)[1]، فيذكر أن أصله من إفريقية (تونس)، غير أن هذا الأصل لم يحل دون توليه القضاء بتلمسان، ثم اشبيلية وفاس. وكان عبد العزيز التونسي[2]، مدرساً بأغمات «وانتفع الناس عليه»[3].

ومن المظاهر التي تفصح عن تجذر هذه الوحدة الشعبية، الحج إلى الديار المقدسة، فقد كان هذا الحج تعبيراً غير مباشر عن الشعور الشعبي نحو الوحدة المغربية. وحسبنا أن يحيى بن ابراهيم[4]، –أحد الأقطاب المؤسسين للدولة المرابطية– مر في طريقه إلى الحج بالقيروان التي كانت قبلة أولى في ركب الحجاج المغاربة، إلى درجة يمكن معها القول أن النسيج الأول للأيديولوجية المرابطية تكوّن في القيروان.

وبالمثل ظلت التجارة إحدى الأدوات التي عكست هذا المنظور الشعبي للوحدة. فالعداء السياسي بين المرابطين وبني حماد، لم يؤثر في جماهير التجار. وحسبنا أن تجار بجاية كانوا

(1) - محمد بن داوود بن عطية بن سعيد العكّي الجراوي: أصله من إفريقية، واستوطن أبوه القلعة. روا عن عبد الجليل الربعي وغيره، ولقي بقرطبة أبا علي الغساني فأخذ عنه كثيراً، واستقضى بتلمسان ثم بإشبيلية ثم بفاس أخيراً. وكان من أهل العلم والمعرفة والفهم، وله مسائل منثورة وقد حدث. توفي ضحا يوم الاثنين العاشر من ذي القعدة سنة خمس وعشرين وخمسمئة، ودفن ضحوة يوم الثلاثاء بعدة، وهو في سن الثمانين. انظر. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك بن مسعود ت.578هـ/1182م: كتاب الصلة، تح: شريف أو العلا العدوى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008م، مج2، ص239؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق1، ص255.

(2) - عبد العزيز التونسي: من الفقهاء ومن أهل الزهد في الدنيا. قرأ على الشيخ أبي عمران الفاسي المدفون بالقيروان، وقرأ على الشيخ أبي إسحاق التونسي وغيرهما ودخل الاندلس واستقر بآغمات وكانت وفاة عبد العزيز التونسي سنة 486هـ/1093م وكان مدرساً بآغمت وانتفع الناس عليه، ولما رأى جملة من تلاميذته نالوا بالفقه الخطط ترك التدريس وقال :«صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص» فاشتغل بالسياحة ثم رجع إلى تعليم علم التصوف مدة. انظر. ابن قنفذ، أحمد الخطيب القسنطيني ت. 810هـ/1407م: أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط،1965م، ص106-107.

(3) - ا بن قنفذ: أنس الفقير، ص107.

(4) - يحيى بن ابراهيم الجدالى: هو زعيم قبائل صنهاجة استلم بعد محمد بن نيفات اللمطي، وكان يحيى مشهور بين الناس. فأقام على رياسة صنهاجة مدة، ثم استخلف ولده ابراهيم بن يحيى على رياستهم وحروبهم مع أعدائهم، وتوجه إلى المشرق، فلما حج وانصرف اجتمع بأبي عمران الفاسي وجلس إليه وتعرف به وأخبره ببلاده وسيرة قومه وأن يندبهم إلى من يقوم بشعائر الله ورغب منه في تعين من يتوجه لهدايتهم فانتدب عبدالله بن ياسين الجزولي وظل معه يحيى بن ابراهيم حتى وفاته . انظر. تاريخ المغرب: ص226-228.

يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وغيرهم[1]، وزاد تشابه المعايير في الكيل والوزن والنقود في جل بلدان المغرب الإسلامي[2]، من تجذر هذه الوحدة التجارية. كما أن قلعة أبي الطويل (قرب القيروان)[3]، أصبحت في عصر البكري مقصد التجار من سائر بلاد المغرب[4]. والحكم نفسه ينطبق على سجلماسة بالمغرب الأقصى[5]، وقفصة التي كان تجارها يخرجون محملين بالسلع، ميممين وجههم شطر المغرب والأندلس[6].

وتتجلى مظاهر التوحد الشعبي كذلك حتى في الأطعمة، فقد ذكر صاحب كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين جملة من الأطعمة التي تخصصت بها إفريقية وتأثر بها المغاربة ومنها القرصة التونسية والعسل المستخدم في الولائم[7].

وتبرز قيمة التصوف كمعطى ثابت من ثوابت الوحدة المغربية على الصعيد الشعبي، ولا غرو فإن فكرت الشيخ والمريد حطمت كل تصور للحدود السياسية. فالمتصوف المغربي المشهور

(1) - الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله ت. 564هـ/1168م: المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبع بريل، مدينة ليدن المحروسة، د.ت، ص90.

(2)- السامرائي، خليل ابراهيم: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، 1985م، ص421.

(3) - وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت عند خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل افريقية وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق ومصر والشام وسائر بلاد المغرب وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة وبهذه القلعة تحصن بها أبو يزيد مخلد بن كيداد. انظر. البكري: المغرب في ذكر، ص49.

(4) - البكري: المغرب في ذكر، ص49.

(5) - الادريسي: المغرب وأرض، ص60.

(6) - مؤلف مجهول ت. القرن السادس الهجري: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، مطبعة جامعة الاسكندرية، د..م، 1958، ص153.

(7) - مؤلف مجهول ت. القرن 6هـ/12م: كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م، ص206-207.

أبو يعزى[1]،هو شيخ أبي مدين[2]، الذي كان يقيم في بجاية، ومنه لبس الخرقة، ومن شدة إعجابه بشيخه أنه قال عن كراماته:« ينبغي أن تكتب بالذهب»[3]. والجدير بالذكر أن تبادل الزيارات بين المتصوفة كانت سنة ثابتة[4]، بل منهم من فضل الإقامة في البلد الذي رحل إليه. فعندما ترجم ابن الزيات[5]، لأبي عبدالله محمد بن سعدون بن بلال القيرواني ذكر أن أصله من القيروان، وأنه استقر بأغمات وريكة وفيها توفي. ومن ذلك يتضح أن قاعدة التعامل على الصعيد الشعبي كانت مهيأة حيث لم تؤثر فيها الصراعات بين الحكام، بل إن هذه القاعدة كانت تطرح البديل الوحدوي لاكتساح واقع التجزئة.

3- ارتباط المشروع الوحدوي المرابطي بأوضاع دار الإسلام[6]:

يلاحظ أن المشروع الوحدوي المرابطي لم يكن بمعزل عن منظومة وحدة دار الإسلام وخلافة الشرق السنية. وربما ليس صحيحاً ما ذكره بعض الدارسين، الذين اعتبروا إنشاء الدولة المرابطية – مهد الوحدة المغربية- إعلاناً للاستقلال الفعلي للمغرب عن المشرق[7]، أو ما زعمه

---

(1) - الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون: قال قوم عنه من هزميرة إيروجان وقيل بني صبيح من هسكورة توفي وقد أناف على مائة سنة بنحو الثلاثين سنة ودفن بجبل إيروجان في أول شهر شوال عام 572هـ/1176م وكان قطب عصره وأعجوبة دهره، قال أبا مدين فيه: رأيت أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعّزى. انظر. التميمي، محمد بن عبد الكريم ت.604هـ/1207م: المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح: محمد الشريف، مطبعة طوب بريس، الرباط، ط1، 2002م، ق2، ص28-40؛ التشوف: ص213-222؛ العزفي، أحمد بن محمد ت. 633هـ/1235م: دعامة اليقين في زعامة المتقين «مناقب الشيخ أبي يعزى»، تح: أحمد التوفيق، مطبعة المعارف، الرباط، د.ت، ص36-65؛ ابن عبد الملك، محمد بن محمد المراكشي ت. 703هـ/1302م: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م، مج5، ص329؛ أنس الفقير: ص 21-36؛ جذوة الاقتباس: ص563-564؛ الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس ت. 1345هـ/1926م: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: محمد حزة بن علي الكتاني، د.د، الرباط – المغرب، 2005، 184-186.

(2) – التميمي: المستفاد، ق2، ص41-45؛ ابن الزيات: التشوف، ص319-326.

(3) - ابن الزيات: التشوف، ص323؛ التادلي، أحمد الصومعي ت.920هـ/1514م: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبو يعزى، تح: علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996م، ص116.

(4) - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص94-95.

(5) - ابن الزيات: كتاب التشوف، ص83.

6 - المقصود بها الخلافة العباسية.

(7) - أكنوش، عبد اللطيف: تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، دار إفريقيا الشرق، د.م، د.ت، ص66.

البعض الآخر من أن قيام المرابطين يعبر عن استعادة البربر لمصيرهم بين أيديهم. وحتى مقولة المشروعية الشرقية التي طرحها باحث آخر[1]، لا تعفيه من هذا الحكم، لأن المسألة لو انحصرت في مجرد الحصول على المشروعية لاقتصرت على بداية تكون الدولة. لكن على العكس يلاحظ أن الظاهرة استمرت متجلية في إيفاد السفراء إلى بغداد[2]، حتى أنها أصبحت سنة يسير على هديها كافة الأمراء المرابطين،

فما كاد علي بن يوسف بن تاشفين[3]، يتسلم السلطة حتى بادر إلى طلب تجديد العهد من قبل خلافة المشرق، واستمر الدعاء للخليفة العباسي على المنابر، وذكر اسمه على وجه العملة المرابطية[4]، واتخاذ شعار السواد. وحتى بعد سقوط الدولة، لم يخفِ بنو غانية – حفدة المرابطين– ولاءهم لبني العباس[5]، في الوقت الذي ناصبوا الفاطميين العداء، رغم تقرب هؤلاء إليهم.

وإذا كان لقب «أمير المسلمين» يجسد فعلياً هذا الارتباط الروحي الحضاري بمنظومة الأمة الإسلامية، فمن السخف اعتبار هذه التسمية راجعة إلى عدم انتساب المرابطين لسلالة الرسول الكريم[6].

---

(1) - القبلي: مراجعات حول، ص14.

(2) - الناصري: كتاب الاستقصا،ج2، ص58.

(3) - علي بن يوسف بن تاشفين: صاحب عدل ودين وتعبد وحسن طويّة وشدّة إيثار لأهل العلم وتعظيم لهم، وذمَّ للكلام وأهله. ولما وصلت إليه كتب أبي حامد أمر بإحراقها وشدّد في ذلك، ولكنه كان مستضعفاً مع رؤوس أمرائه، فلذلك ظهرت مناكير وخمور في دولته. فتغافل وعكف على العبادة. وتوثب عليه ابن تومرت، ثم صاحبه عبد المؤمن. توفي في رجب سنة 537هـ/1142م عن إحدى وستين سنة، وتملك بعده ابنه تاشفين. انظر. وفيات الأعيان: مج7، ص125-126؛ ابن سعيد، علي بن موسى ت. 685هـ/1286م: رايات المبرزين وغايات المميزين، تح: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987م، ص52؛ العبر: ج2، ص452؛ ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص61-62؛ النجوم الزاهرة: ج5، ص272؛ شذرات الذهب: مج6، ص188-189؛ الأعلام: ج5، ص33.

(4) - ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص64-65.

(5) - حسن، علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م، ص 48.

(6) - أكنوش: تاريخ المؤسسات، ص70.

بل الواقع– كما تنبه إلى ذلك أحد الدارسين–[1]، أن سياسة المرابطين الوحدوية كانت ترمي إلى المحافظة على وحدة دار الإسلام، وردّ المغرب إلى أحضان الأمة الإسلامية على حد تعبير باحث آخر[2].

ومهما كان الأمر، فإن هذه الظاهرة –ظاهرة الارتباط مع الشرق الإسلامي– انعكست بصورة أوضح على المستوى الشعبي، فقوافل الحجاج المغاربة إلى مكة والمشرق ازدادت أعدادها رغم عدم توفر الأمن بسبب استيلاء الفاطميين على مصر. والواقع أن التواجد الفاطمي لم يحل دون احتضان مصر للمغاربة. وتطفح كتب السير والطبقات بسيل من الأمثلة التي تصب في هذا الاتجاه. فعندما ترجم ابن الآبار[3]، لابن أبي الصلت ت. 520هـ/1127م. يذكر أنه لزم التعلم بمصر عشرين سنة. ويذكر التميمي، أنه بعد أداء فريضة الحج، كانوا يحتكون بمشاهير علماء مكة[4]، حتى إذا ما طاب لهم المقام فيها، واستقطبهم اشعاعها العلمي، آلوا إلا أن يجعلوها دار مقام واستقرار. فهذا أبو الحسن علي بن حمود المكناسي كما يذكر التميمي، غمره جوها الديني والعلمي، مما حدا به إلى الإقامة فيها نهائياً بعد أن قدمه أهلها لإمامة المالكية[5].

لم يقتصر تواجد المغاربة والأندلسيين على مصر ومكة فحسب، بل وصلوا إلى العراق، وهناك طبقت شهرتهم الآفاق. فأبو الأصبغ عبد العزيز بن علي المعروف بابن الطحان، حج ودخل العراق وقرأ بواسط ودخل الشام، واشتهر ذكره وجل قدره، وروى عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي الحافظ، وعلي بن يونس. قال بعضهم: سمعت غير واحد يقول: ليس بالغرب أعلم

(1) - حركات، ابراهيم: المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م، ج1، ص172، 186.

(2) – كنون، عبدالله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، د.د، طنجة، ط2، 1960م، ج1، ص68.

(3) - ابن الآبار محمد بن عبدالله ت. 658هـ/1259م: المقتضب من تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ط2، 1983م، ص56.

(4) - مثل لقاء أبي الحسن علي بن أحمد الكناني بالإمام الغزالي. انظر. المستفاد: ق2، ص68-69.

(5) - التميمي: كتاب المستفاد، ق2، ص103- 105.

بالقراءات من ابن الطحان، قرأ عليه الأثير أبو الحسن محمد بن أبي العلاء وأبو طالب ابن عبد السميع وغيرهما، وكانت ولادته بإشبيلية سنة 498هـ/1104م، وله كتاب «نظام الأداء في الوقف والابتداء» ومقدمة في مخارج الحروف، ومقدمة في أصول القراءات، وكتاب «الدعاء» وكان من القراء المجودين الموصوفين بالإتقان ومعرفة وجوه القراءات. توفي بحلب سنة 559هـ/1163م [1]، أما أبو محمد عبدالله بن عيسى فقد دخل العراق وخرسان، وأقام بها أعواماً وطار ذكره في هذه البلاد، وعظم شأنه في العلم والدين، وكان من بيت شرف وجاه في بلده عريض مع سعة الحال والمال توفي سنة 551هـ/1156م، وقيل أن وفاته سنة 548هـ/1153م، وكانت ولادته 484هـ/1091م، بشلب[2].

وبالمثل فإن العراقيين توجهوا بدورهم نحو الأندلس التي كانت أنذاك ولاية مغربية ومن هؤلاء هشام بن محمد الذي تنافس الناس في الأخذ عنه[3]. وعلى غرار الصلات العلمية، لم ينطفئ شعاع الصلات الروحية بين الشرق والغرب، إذ يخبرنا ابن الزيات[4]، بأن طائفة من متصوفة الشرق وصلوا إلى بلدة أزمور لزيارة بعض متصوفة المغرب كأبي عبدالله بن أمغار وأبي شعيب وأبي عيسى. كل هذه القرائن الرسمية منها والشعبية تنهض دليلاً على أن المد الوحدوي المغاربي تأطر في وعاء المد الوحدوي الإسلامي العام.

4- أثر العوامل الداخلية والخارجية والصراع مع دار الحرب في ميلاد المشروع الوحدوي المرابطي:

(1) - المقري، أحمد بن محمد ت. 1041هـ/1631م: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط5، 2008م، مج2، ص634.
(2) - المقري: نفح الطيب، مج2، ص650.
(3) – ابن الآبار: التكملة، ج4، ص144-145.
(4) - ابن الزيات: كتاب التشوف، 185.

دخل العالم المسيحي عصر الاندماج السياسي، وجرب نوعاً من التوحد الديني حيث استطاعت الكنيسة في روما أن تسرب نفوذها، وأخذت البورجوازية الأوروبية تتطلع نحو النفوذ والسلطان، فانتعشت لذلك الحياة الاقتصادية. وعلى الرغم من اهتمام المرابطين بالأسطول، وبروز سياستهم المتوسطية في أوضح صورها، فإن ذلك لم يكن كافياً لتخويف المتطلعين والمتربصين. ولو أن قوام الأسطول بلغ مائة بارجة حربية[1].

فمن إنصاف القول أن ميزان القوى أصبح في صالح المسيحيين، إذ غدت أوروبا كلها تقريباً موحدة تحت راية الكنيسة، وبدأ دبيب النهضة يغمرها، كما بدأت شعوبها تنتعش ووعيها يستيقظ، فأصبحت تطالب بحقوقها، وتناقش حكامها، ودعمت هذه النهضة السياسية بانتعاش الحركة التجارية، وأصبحت أساطيل جمهوريات إيطاليا تجوب البحر المتوسط طولاً وعرضاً، وتطهره من أوكار الأساطيل الإسلامية[2]. ولا غرو فقد شنت هجومات عنيفة على سردينيا، واستولت على بونة سنة 420هـ/1029م. ومنذ سنة 453هـ/1062م انتهزت القوى المسيحية فرصة انشغال الزيريين بما داهمهم من غارات العرب الهلاليين، فأخذوا ينتزعون منهم المدينة تلو الأخرى حتى تمت السيطرة نهائياً على صقلية سنة 480هـ/1089م، ثم بدأوا يقلقون راحة الزيريين في عقر دارهم، مصداق ذلك تعرض زويلة والمهدية لاعتداءات صارخة انتهت باستيلائهم عليهما.

ولم تكن الجبهة الأندلسية في موقف تحسد عليه، فالممالك النصرانية تخلت عن نزاعاتها، وأخذت توجه كل قواها ضد أعداء النصرانية، بفضل ألفونسو السادس الذي تمكن من احتلال طليطلة أعظم معقل للدلة الإسلامية في الأندلس، وصاغ الوحدة السياسية بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ إسبانيا النصرانية[3]. وأخذ الزعيم المسيحي الذي لقب بذي الملتين، يستدر عطف الكنيسة، فألغى الطقوس القوطية من الكنيسة الاسبانية، وأحل محلها الطقوس الرومانية، وكان

(1) - حركات: المغرب عبر، ص212.
(2) - محمود: قيام دولة، ص240.
(3) - أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 68.

لهذه السياسة أثر بعيد في حركة الاسترداد وإشعال نار الحروب الصليبية التي صارت ترعاها كنيسة روما وتباركها[1]، حتى أصبحت الأندلس خط الصدام الأول على حد تعبير أحد الباحثين[2]. ومما يزكي هذا القول ويفصح أن المغرب العربي أصبح هدف الحروب الصليبية، أن البابا أوربان الثاني لم يسمح لبعض الاسبان بالمساهمة فيها، بدعوى أن مقاتلتهم للمسلمين تعتبر مشاركة فعلية فيها. بل إن الفونسو السادس وصل – كما تذكر الرواية العربية– إلى جزيرة طريف في أقصى الجنوب، فأدخل قوائم فرسه في البحر، وقال بأن هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته[3].

ومن القرائن التي تعكس شدة الصدام بين القوى المغربية والمسيحية في البحر المتوسط ما أكدته القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال وحسبنا أنها أقرت بخصوص طبقة النبلاء أن الذين يدخلون في عدادها ينحصرون في أبناء شهداء النصرانية، وأن صفة النبل ترفع عن كل من فر إلى المسلمين[4].

وثمة ملاحظة مهمة لا تقل أهمية عن سابقتها، وهي أن المشروع الوحدوي المرابطي انطلق أول مرة من الجنوب، ومن طرف القوى الأمازيغية المحلية. فعلى عكس المحاولات السابقة، كانت المشاريع الوحدوية تنطلق من الشرق، حيث كان المغرب يتلقى الايديولوجي الوافدة، والزعماء العرب الذين كانوا يؤسسون إمارات سرعان ما تتهاوى وتفشل في تحقيق الدولة الموحدة ولذلك لا يسعنا إلا أن نعتبر أن فشل المحاولات السابقة في بناء كيان سياسي موحد لا يعزى إلى عجزها عن توحيد الطرق التجارية تحت سيطرتها فحسب، بل يرجع كذلك إلى أن أصحابها لم يكونوا من العترة المغربية الخالصة، فكانوا بذلك دخلاء على العصبية التي ناصرتهم.

(1) - محمود: قيام دولة، ص241-244.
(2) - نصرة الله: دولة المرابطين، ص103.
(3) - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص182-183.
(4) - أشباخ: تاريخ الاندلس، ص248-249.

وفي الوقت الذي جرى تسرب هذه المحاولات من الشرق، يلاحظ لأول مرة أن المشروع الوحدوي المرابطي جاء من الجنوب، والأمر في حد ذاته يحمل بعداً اقتصادياً يتجلى في تدهور طرق التجارة المؤدية إلى الشرق، وخاصة الطريق المار عبر واحة فزّان الذي محت آثاره العواصف، لصالح الطريق الساحلي النابع من الجنوب الصحراوي الذاهب نحو عالم البحر المتوسط وأوروبا. ومهما كان الأمر فإن مساهمة القوى المحلية في صنع هذا القرار السياسي، جعلت المشروع الوحدوي المرابطي أول وحدة مغربية خالصة تعبر عن الشخصية المغربية الإسلامية.

5- الشروط الإيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية لميلاد المشروع الوحدوي المرابطي:

من الملاحظ أن المشروع الوحدوي المرابطي تسلح بإيديولوجية إصلاحية تمثلت في المذهب المالكي الذي أصبح في نظر المغاربة مذهباً وعقيدة ووطنية على حد تعبير أحد الدارسين[1]. وقد تضمنت هذه الحركة التصحيحية فكرة إقامة دولة موحدة على أساس الرجوع إلى الينابيع الأولى للإسلام، وتطهير المجتمع ولو عن طريق الشدة[2]، وهذه أول مرة تحدث حركة في هذا الاتجاه.

وإذا كانت الإيديولوجية المالكية قد مكّنت لنفسها من الغلبة والهيمنة، فإن ذلك لا يفسر بأنها المعقل الذي عصم أهل المغرب من شرور الفتنة[3]، أو معارضة الفقهاء المالكيين للسلطة. فقد أثبتت الأحداث أن هؤلاء الفقهاء شكّلوا السند القوي للسلطة المرابطية. والتفسير السوي بإدراك صحوة المالكية في المغرب رهنٌ بربطه بالشرق الإسلامي الذي كان يعرف مداً سنياً. وليس ثمة ما يحول دون القول بأن خطة تطويق المذهب الفاطمي من جناحي العالم الإسلامي يفسر ما قام

(1) - محمود: قيام دولة، ص90.
(2) - حيث يقوم البكري بشرح بعض التفاصيل عن ذلك .انظر. المغرب في ذكر: ص165-166.
(3) - محمود: قيام دولة، ص98.

به المرابطون. فإذا كانت الأشعرية في الشرق قد مهدت الطريق للسلاجقة، فإن هذا الدور كان من نصيب المرابطين في الغرب.

وإذا ربطنا بين الإيديولوجية وواقعها التحتي، فإنه يتبين من خلال ما توصلت إليه بعض الدراسات أن الحكم السلجوقي مثل ذروة المد الاقطاعي على الصعيد السياسي، وأن الأشعرية جاءت انعكاساً لهذا النظام على الصعيد الفكري. أما في المغرب فيمكن التمييز بين ثلاثة مذاهب كان بإمكانها ان تلعب دور المنافس على مستويات مختلفة: المذهب الحنبلي على مستوى العقيدة، والشافعي على صعيد المنهجية الفقهية، والمالكي على مستوى التنظيم الفقهي. ومع أن المذهبين الأولين كانا يلقيان تجاوباً من طرف الطبقات الدنيا في المدن والأوساط التجارية. فإن المد الإقطاعي الذي كان يجتاح العالم الإسلامي بما في ذلك المغرب لم يسمح لهما بالغلبة والانتصار، فضلاً عن أن هذه المذاهب لم يكن يعززها منطق أو فلسفة معينة كما حدث في المشرق[1].

كما أن انتصار الإيديولوجية المالكية يفسر بما كان يمثله شمال المغرب أنئذ، فقد كان أشد تعلقاً بالإسلام بفضل جهود الأدارسة ونمو حركة التجارة مع الأندلس. ومن هنا يمكن تفسير طريق الاكتساح الذي سلكته المالكية انطلاقاً من المدن التجارية[2]. وهذا الدور يجسد ما طمحت إليه هذه القوى الموحدة من استيلاء يضمن لها السيطرة الكلية على تجارة الشمال والجنوب أي تجارة الذهب، ومحاولة احتكار تسويقها في بلاد المغرب. على أية حال فإن المذهب المالكي أصبح خطاً إيديولوجياً وحدوياً. ومما زاد في نفوذه وجماهيريته تلك الصبغة الثورية، التي ظهر بها خاصة في المراحل الأولى من تأسيس الدولة المرابطية التي وجدت سنداً يعطيها مشروعية التحرك في الاتجاه الوحدوي.

[1] - حركات: المغرب عبر، ص176-181.
[2] - حركات: المغرب عبر، ص114-115.

وكما تسلح المشروع الوحدوي بإيديولوجية إصلاحية منحته مشروعيته وديناميته، فإنه استند على شرط اقتصادي تجلى في سيطرة المرابطين على طرق التجارة بعيدة المدى، كما أن دور الوسيط التجاري الذي اضطلعوا به زاد من تجذر وحدة المغرب. وإنعاش اقتصاده وتطوير وسائل إنتاجه، مما دعم قاعدتهم المادية لتحقيق وحدة المغرب العربي. ويكفي دليلاً على ذلك كون الحركة المرابطية اتبعت في خط سيرها نحو الشمال أهم المدن التجارية وهي سجلماسة وتارودانت وأغمات وسهول تامسنا الغنية ثم فاس. وبذلك أصبحت تتحكم في طرق تجارة القوافل. وبإحكام قبضتها على هذه الطرق تمكنت من خلق الكيان السياسي الموحد. وربما يكون التشرذم السياسي الذي سبق المرابطين لم يكن سوى انعكاس لتصدع الطرق التجارية وتفتيت ملكيتها بين مختلف الكيانات القزمية. كما أن اعتياد المغاربة على حياة الترحال والتنقل أعاق عملية إنجاز الوحدة السياسية حيث لم يقدّر للقبائل المتنقلة إقامة حلف سياسي، على عكس قبائل الملثمين التي نجحت في إقامة هذا الحلف الذي يعد النواة الأولى للوحدة المغاربية، وهو نجاح يُفسرُّ بسيطرتهم على الطريق التجاري الذاهب إلى السودان، لذلك لا عجب أن يتصدوا للقيام بهذا المشروع السياسي الوحدوي.

ومن جملة الملاحظات التي يمكن أن تذكر بصدد المشروع الوحدوي المرابطي هو أن هذ الأخير ارتكز على عامل لا يمكن انكاره، ويتعلق الأمر بقرابة الدم. فبنو حماد هم أصلاً بنو عمومة القبائل الصنهاجية الضاربة في الجنوب المغربي، لذلك فإن العلاقة بين الجانبين لم تعرف تصعيداً خطيراً في النزاع رغم طموح المرابطين المبدئي إلى توحيد المغرب العربي عن طريق ضم المغرب الأوسط، بل إن عامل القرابة لطّف من حدة الصراع، ووفر أطواراً من المهادنة، بل إلى التعاون أحياناً إلى درجة جعلت بعض الباحثين[1].

[1] - نصر الله: دولة المرابطين، ص75.

يذهبون إلى القول بأن علاقة القرابة تلك، جعلت يوسف بن تاشفين[1]، لا يتقدم في عملية التوحيد شرقاً، بل إن التعاون بلغ ذروته في عهد الأمير الحمادي بلكين بن محسن (444-447هـ/1053-1056م) حين أمد بني عمومته من الملثمين بجيش ضخم لتدعيم الوحدة الصنهاجية في الشمال والجنوب، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مبلغ الإحساس الوثيق بالقرابة بين صنهاجة الشمال وصنهاجة الجنوب، واعتقادهما أنهما يقاتلان عدواً مشتركاً [2].

وربما لم يكن عامل القرابة عاملاً حاسماً في عملية التوحيد بقدر ما كان ظرفياً فحسب، وأن عوامل الهيمنة – بما تعنيه من سيطرة على الطرق التجارية– كانت وراء هذه المسألة، وهذا ما يفسر ترحيب الحماديين بأبناء عمومتهم في بداية تكوّن دولتهم وتضامنهم معهم إبان ظهور الخطر الموحدي[3]. وعدم الاطمئنان إلى نياتهم عندما أصبحوا يهددون خطوطهم التجارية الغربية. وبالرغم من ظرفية هذا العامل، فقد لعب دوره في نمو فكرة الوحدة المغربية خاصة حين كانت في طورها الجنيني في الصحراء المغربية.

6- لماذا تعثرت التجربة الوحدوية المرابطية:

[1] - يوسف بن تاشفين: أمير المسلمين، سلطان المغرب، أبو أيوب اللمتوني البربري الملثم، توفي في ثالث المحرم، عن تسعين سنة، وكان أكبر ملوك الدنيا في عصره، ودولته بضع وثلاثون سنة، وكان بطلاً شجاعاً عادلاً، عديم الرفاهية، قشب العيش على قاعدة البربر، معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت، اختط مراكش وأنشأها في سرح، وصيّرها دار الإمارة، وكثرت جيوشه وبَعُد صيته وتملك الأندلس، ودانت له الأمم، وفي آخر أيامه بعث رسولاً إلى العراق، يطلب عهداً من المستظهر بالله، فبعث له بالخلع والتقليد واللواء، وأقيمت الخطبة العباسية بمملكته، وكانت وفاته في سنة 500هـ/1106م، وعهد بالأمر من بعده إلى ابنه علي، الذي خرج عليه ابن تومرت. انظر. وفيات الأعيان: مج7، ص112-125؛ العبر: ج2، ص381؛ تاريخ الإسلام: ج34، ص329-339؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ: دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، ج1، ص436؛ الحلل الموشية: ص12، 59-60؛ أبي زكرياء، يحيى بن محمد ت.782هـ/1380م: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، طبع بمطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903م، ص86؛ كتاب صبح الأعشى: ج1، ص363؛ النجوم الزاهرة: ج5، ص195، شذرات الذهب: مج5، ص427-428؛ الأعلام: ج8، ص222.

[2] - السامرائي: علاقات المرابطين، ص306؛ محمود: قيام دولة، ص200.

[3] - يذكر ابن عذاري أن جيشاً من بجاية وصل لمناصرة الأمير المرابطي تاشفين بن علي عندما كانت تلاحقه القوات الموحدية. انظر. البيان المغرب: ج4، ص103؛ السامرائي: علاقات المرابطين، ص306.

عرف المغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري، أي قبيل ظهور المد المرابطي، نظاماً سمي بالنموذج القبلي الأسروي، حيث تقاسمته عدة حكومات « قبلية» زادت من تجذر التجزئة، وتفاقم النعرة القبلية[1]، وأصبح نهباً لقوى طائفية مغامرة مزقت وحدته إلى إمارات إقطاعية. وأثرت مجمل التقلبات السياسية على الوضع الاقتصادي، فالحروب التي ذّرت قرنها بين مختلف الكيانات المتناحرة لم تتح للمنطقة ظروف السلم والاستقرار، وهي شروط أساسية لتقدم الإنتاج. يقول ابن أبي زرع عن صراع الأمير فتوح بن دوناس مع أخيه عجيسة[2]: فكانا لا يزالان يقتتلان ليلاً ونهاراً، فكثر الخوف في أيامهم بالمغرب وغلت الأسعار، واشتدت المجاعة، وعظم الهرج، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد، ليس لأهل المدينة شغل إلا القتال أناء الليل وأطراف النهار[3].

وثمت عامل آخر ساهم في تدهور الحياة الاقتصادية في المغرب الإسلامي، وهو انهيار الطريق التجاري العابر لواحة فزّان بسبب العواصف الرملية، مما أسفر عن ازدياد أهمية الطريق الغربي الذي كان يمر بديار الملثمين، فاحتكره هؤلاء لأنفسهم وحرموا الزناتيين منه. ولعل هذا الانقلاب في الطريق التجاري هو الذي فرض انهيار النموذج الأسروي القبلي كنظام سياسي لصالح المركزية السياسية التي ستتأسس انطلاقاً من عملية بسط هيمنتها على مختلف الطرق التجارية الأخرى. وتمخض عن إفلات هذا الطريق من يد زناتة استئسار هذه الأخيرة في فرض المكوس والضرائب الجائرة. مما أسفر عن تدهور الأوضاع، وظهور أعمال السلب والنهب، وفي ذلك دليل على أن دولة الأسرة القبلية كنظام سياسي أصبح متجاوزاً بعد أن عجز عن تحقيق ما كانت تطمح

---

(1) - حسن: الحضارة الإسلامية، ص10.

(2) - فتوح بن دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي: أمير فاس وليها بعد وفاة أبيه سنة 452هـ مشاركاً لأخيه الأكبر عجيسة بن دوناس واستوطن عدوة الأندلس من مدينة فاس، كما استوطن عجيسة عدوة القرويين. ثم كانت بينهما حروب استمرت إلى أن ظفر الفتوح بأخيه عجيسة، فقتله غدراً. وصفت له الإمارة إلى أن هاجمته لمتونة فرحل، وجهل مصيره. ومدة إمارته خمسة أعوام وخمسة أشهر. وهو الذي بنى باب الفتوح الباقي إلى الآن. انظر. البيان المغرب: ج3، ص313-314؛ جذوة الاقتباس: ق2، ص507؛ الأعلام: ج5، ص136.

(3) - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص141.

إليه الجماهير المغربية من خلق ظروف ملائمة للإنتاج. وإذا كان الوضع الاقتصادي المتسم بالانكفاء وعدم الانفتاح على التجارة بعيدة المدى قد كون بيئة سياسية مهترئة، فإنه أفرز على الصعيد المذهبي كذلك تعددية في المذاهب، مصداق ذلك ما تشير إليه المصادر من انتشار مذاهب ونحل مختلفة[1].

وما الأمور التي عثرت التجربة الوحدوية المرابطية على الصعيد الداخلي والخارجي على حد سواء؟

فعلى الصعيد الخارجي ، لا سبيل لإنكار انشغال القوى المرابطية بردع التطلعات الصليبية وتحجيم دور النصارى إلى حد أنها لفظت أنفاسها وهي في زهرة شبابها. فقد وجهت كل طاقاتها للتصدي لحركة الاسترداد المسيحي، ومن ثم خصصت كل النفقات للجانب العسكري، مما أفقدها قاعدتها المادية التي عملت جاهدة في بداية تكوينها على ترسيخها. فمعركة الزلاقة لم تكن سوى انطلاقة لشوط جديد من التسلط الصليبي، تمخض عنه إضعاف الدولة وإرهاق ميزانيتها، وهذا جانب له أهميته في تفسير آلية التصدع المشار إليه في الأزمات البنيوية التي شكلت منعطفاً خطيراً في المسار التاريخي للدولة. ذلك أن القوى التي حملت مشروع التوحيد كانت تحمل في ذاتها أمراضاً سياسية يمكن إجمالها فيما يلي:

1- اعتماد الدولة على القوة الحربية لإعطاء المشروعية لنفسها، وتبنيها مشروعات توسعية تفوق طاقاتها. وهذا ما يفسر انطفاء شعلتها وهي في أوجها. وتبرز في هذا الصدد وجاهة رأي أحد الدارسين[2]، حين استخلص بأن مقولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهم دعامة في

[1] - يشير الإدريسي إلى تواجد المذهب الفاطمي في السوس. انظر. المغرب وأرض السودان: ص62؛ المغرب في ذكر: ص161؛ هذا بالإضافة إلى فرق الخوارج التي عمت المغرب الإسلامي، وأهمها الصفرية والإباضية. انظر. الحضارة الإسلامية: ص463.

[2] - أكنوش: تاريخ المؤسسات، ص68.

الايديولوجية المرابطية هي مقولة سياسية تتضمن مشروعاً حربياً توسعياً. ويصور ابن أبي زرع[1]، هذا التوسع المرابطي في عبارة مختصرة متحدثاً عن علي بن يوسف: وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان. وملك بلاد الأندلس شرقاً وغرباً، وملك الجزائر الشرقية وميورقة ويابسة، وخطب له على ألفي منبر ونيف وثلاثمئة منبر، وملك من البلاد ما لم يملكه والده. لأنه وجد البلاد هادنة، والأموال وفيرة، والملك قد توطأ، والأمور قد استقامت. ويلخص ابن الخطيب[2]، ذلك في جملة أكثر إيجازاً بقوله عن يوسف بن تاشفين: فقد خطب به في بلاد المغرب على نحو ألفي منبر.

ولم يكن التوسع هو معضلة الدولة صاحبة المشروع الوحدوي فحسب، بل إن الأداة التي سُخرت لتحقيق ذلك تكونت من جيش ضم عناصر من المرتزقة من سودان وروم وصقالبة[3]. وربما كان إضعاف الوحدة والعمل على تصدعها بسبب تواجد جيش مرتزقة.

2- نمو السلطة الدينية وتطرفها، وهو ما أجمعت عليه الدراسات قديماً وحديثاً[4]. وهناك من ذهب إلى أن هذه الظاهرة جاءت نتيجة قيام الدولة المرابطية على أساس ديني[5]، بل ثروة الفقهاء واستيلاءهم على زبدة خيرات الدولة أهلهم لتسلم هذا الموقع. وقد خلق هذا التشدد تناقضات داخلية في الحركة نفسها، وحسبنا معارضة فقيه السوس وجاج بن زلو اللمطي للإجراءات المتشددة التي اتخذها عبدالله بن ياسين، وهو ما يبين أن الاتجاه لم يكن سليماً كما يجب منذ بداية الحركة.

---

(1) - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص199؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس،ق2، ص460.

(2) - ابن الخطيب: تاريخ المغرب، ص234.

(3) - حسن: الحضارة الإسلامية، ص322؛ موسى ، عز الدين أحمد: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، 1983م، ص107-108.

(4) - حسن: الحضارة الإسلامية، ص26-27؛ عنان، محمد عبدالله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1964م، ق1، ص411-412؛ الناصري: الاستقصا، ج2، ص75.

(5) - الناصري: الاستقصا، ج2، ص75.

3- عدم تجاوز الإطار القبلي: فبالرغم أن المرابطين تمكنوا من فرض سلطتهم على معظم القبائل، وأخذوا يتطلعون لتوحيد المغرب الإسلامي تحت ظل سلطة واحدة ودولة مركزية واحدة، إلا أن دولتهم الكبرى ظلت وفية للتراث القبلي يتضح ذلك من خلال تقسيم المناصب السلطوية على أبناء قبيلة لمتونة، وجعل كل النفوذ حكراً عليها[1].

4- عدم تطوير الإيديولوجية المالكية وإفراغها من مضمونها الوحدوي: تذهب المقولة الخلدونية إلى التأكيد بأن المالكية تناسب طبائع المجتمع البدوي، وهي نظرية تبدو صحيحة ومعلوم أن المالكية توافقت مع المد المرابطي خاصة في البداية، حين كانت البداوة لازالت الطابع المؤطر لسلوك أهل اللثام. أما وقد اتسعت الدولة وسيطرت على طرق الذهب، وغزتها مدينة الاندلس، فإن الإيديولوجية المالكية لم تستطع استيعاب هذه المتغيرات التي أصبحت قوية وسريعة الإيقاع. كما عجزت عن مسايرة واقع أصبحت التجارة عصب وجوده.

5- الإفلاس على الصعيد الاقتصادي: فمن المؤكد أن الثورة التومرتية وكذا مختلف ثورات المدن الأندلسية، بالإضافة إلى الحروب مع نصارى الشمال قد أثرت بشكل بليغ في ميزانية الدولة. وقد تفاقمت الأزمة المالية خاصة في عهد الأمير علي بن يوسف[2]. ويمكن إرجاع سبب ذلك – دون شك- إلى النفقات العسكرية التي أجبر عليها النظام المرابطي، وما رافق ذلك من قحط، فجفت الأرض وقلت المجابي وكثرت الضرائب. ويصور ابن الأحمر[3]، هذا الواقع المؤلم صورة رائعة بقوله: وغلت الأسعار. وعم الجور، وكثرت المحن بالعدوتين وانقطع السفر والأسباب، وكثر النهب، وانقطعت الطرق. وهكذا فإن الشرط الاقتصادي الذي تأسس عليه المشروع الوحدوي قد انهار. وكان لانهياره أثر في تعثره.

---

[1] - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص241؛ حسن: الحضارة الإسلامية، ص61، 68.
[2] - موسى: النشاط الاقتصادي، ص165-166.
[3] - ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص31.

6- الإفلاس على مستوى النظام السياسي: إن الحالة السياسية في المغرب قبل ظهور المرابطين قد أفرزت كيانات قزمية متناحرة، وأن الدولة المرابطية جاءت لتكتسح هذا التشرذم السياسي، وتقيم على أنقاضه دولة مركزية. إلا أن المرابطين بحكم انتمائهم إلى قوة هامشية بدوية لم يستطيعوا حسم الصراع سوى بالاستناد على القوة. ولأنهم كانوا يتطلعون إلى النفوذ والسلطان وتحقيق الأمجاد اعتماداً على القوة الحربية، فإن النظام السياسي الذي أقاموه كان نظاماً إقطاعياً عسكرياً لا يتجاوب مع العمل الوحدوي المنفتح، والقائم على سياسة التسامح والسلم التي هي خير ضمان لنجاح الوحدة المنشودة واستمراريتها.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا كان المغرب الأقصى متزعم حركة الوحدة؟

إن مثل هذا التساؤل مرتبط بسابقه، وهو يجسد ضمنياً أزمة قيادة الوحدة التي كانت ضمن العوامل المؤدية إلى تعثر المشروع الوحدوي، ويمكن الإجابة عن هذه المسألة من خلال مخلفات بعض الأحداث التاريخية.

فلا سبيل إلى الشك في أن الغزو الهلالي وجه ضربة قاصمة للزيريين والحماديين، حكام المغرب الأدنى والأوسط، وأثّر في قواهما الاقتصادية خاصة طرق القوافل التجارية التي تحولت نحو المغرب الاقصى، فكان ذلك بمثابة هدية للمرابطين، وحكماً موضوعياً برجوح كفة المغرب الأقصى[1].

ولعل موقع المغرب الأقصى هو الذي جعله يتصدى لهذه المهمة في قيادة الوحدة وضرب القوى التي كانت تعاكسه وخاصة القوى النصرانية، ولا أدّل على ذلك من أن مجريات الأحداث تبين أنه بمجرد ما أصبحت القوى المرابطية في أواخر عهدها عاجزة عن حماية الدولتين الزيرية والحمادية، تعرضت السواحل في المغرب الأوسط والأدنى لغارات الأسطول النورماني الذي أثخن

[1] - القبلي: مراجعات حول، ص16.

في الأهالي قتلاً وتنكيلاً، ثم تمكن من احتلال جربة سنة 530هـ/1136م، لتسقط المهدية بعد ذلك في يده سنة 543هـ/1149م[1]. هذا بالإضافة إلى أن الزيريين والحماديين كانوا في صراع وتنافس عائلي حول السلطة شغلهما عن قيادة الوحدة، ناهيك عن خراب بني هلال للبلدين معاً وهو ما جعلهما لا تطمحان بتاتاً إلى زعامة المشروع الوحدوي، أو حتى تبنيه أو استساغته. ولعل هذا ما يفسر موقف الحماديين منه.

السؤال الذي يطرح نفسه ألم يكن للموقف الحمادي بُعدً سلبي على المشروع الوحدوي؟ وقبل ذلك ما هو هذا الموقف بالذات؟

يمكن تلمس جانبين في الموقف الحمادي من المرابطين كقوة توحيدية: وجه سلمي وآخر عدائي. وسبب هذه الازدواجية ربما راجع إلى أن الحماديين لم يدركوا عمق المد الوحدوي، وظنوا أنه مجرد لعبة سياسية تدخل في إطار التوسع، وهنا يكمن سر الصدمة التي أثارتهم منذ بدأ الزحف المرابطي في المغرب حيث تصدوا له بحزم ودون هوادة[2].

ورغم أن سياسة المهادنة وعلاقة حسن الجوار كانت تظهر أحياناً بمظاهر مختلفة كالقرابة والمصاهرة[3]، فإن الحماديين اتخذوا موقف الحذر من المرابطين، بل ناصبوهم الحرب سنة 476هـ/ 1084م، ورووا غليلهم في الوقت الذي هبت القوات المرابطية إلى الأندلس[4]، حيث تحالفوا مع عرب بني هلال لضرب قواعدهم في المغرب الأوسط.

---

(1) - سالم - العبادي، عبد العزيز- أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1969م، ق2، ص246.

(2) - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص234.

(3) - السامرائي: علاقات المرابطين، ص306، 312.

(4)- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص234.

وتعكس رسالة يوسف بن تاشفين إلى الناصر بن علناس[1]، الحمادي والتي أوردها ابن خاقان[2]، عمق أزمة الوحدة حين أشار فيها إلى خيبة الأمل التي أصيب بها عندما علم باستغاثة الناصر بن علناس ببني هلال لمهاجمة المغرب، في الوقت الذي كان من الواجب أن تتضافر الجهود لردع العدوان الصليبي، وهذه الأزمة تعبر عن أزمة القيادة، وهي أزمة موروثة حيث يتبين من رسالة أخرى كتبها أبو بكر بن القصيرة أن المنصور بن الناصر[3]، نهج سياسة أبيه العدوانية، ومن ثم استمرار الحرب الباردة[4]، التي كان لها أثر سيء على مصير الوحدة المغربية، وكان من مظاهرها التجاء أمراء الطوائف المخلوعين إلى المغرب الأوسط[5].

ويحاول بعض الباحثين تلمس الأعذار لحرب الأخوة الأعداء فمنهم من يحمّل المرابطين مسؤولية تكدر العلاقات فيصف أعمال الحماديين بأنها مجرد حرب دفاعية، بينما يرى البعض بأن هدف المرابطين انحصر بصد غارات عرب بني هلال ومنعهم من التسرب إلى المغرب[6].

---

(1) - الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي: أمير شجاع عمراني، من بني حماد. كان من سكان قلعتهم واستنكر عتّو قريبه بلكين بن محمد فتصدى له وقتله اغتيالاً وتولى بعده القلعة (قلعة بني حماد) ولكنه كره الإقامة فيها فبنى قريباً منها بالجبل قصوراً سميت بعده أسماء. واتسعت مملكته وبايعه أهل القيروان سنة 460هـ /1067م وبنى مدينة بجاية بين المغرب وإفريقية، أول ما اختطها حوالي سنة 457هـ/1064م وقال: بينها وبين جزائر مرغناي أربعة أيام وسماها الناصرية نسبة إليه وتوفي بها سنة 481هـ/ 1088م. انظر. تاريخ المغرب العربي: ص94-97؛ الأعلام: ج7، ص349.

(2) - ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله ت. 529هـ/1134م: قلائد العقيان، تح: محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر- دار القلم، تونس، 1990م، ص249-254.

(3) - المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد: وللمنصور آثار عظيمة وقصور شامخة منيفة. وأخبار شهيرة. وتحرك إلى المغرب وقد صارت تلمسان إلى ملك المرابطين في جيوش عظيمة، اشتملت على اثني عشرة محلة. في شوال سنة ست وتسعين وأربعمائة. ونازل تلمسان. ثم أقلع عنها صلحاً. ولما قفل عن تلمسان، توفي 498هـ/1104م. انظر. تاريخ المغرب العربي: ص97.

(4) - السامرائي: علاقات المرابطين، ص310.

(5) - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص239-240.

(6) - السامرائي: علاقات المرابطين، ص311-312.

يبدو أن المرابطين استخدموا الأسلوب العسكري في إخضاع الدول المجاورة ويلاحظ غياب المشروع السلمي للوحدة، حتى أنهم اتبعوا القمع في المنهج الفكري فقد جوبهت به المذاهب غير المالكية كالاعتزال، وعلم الكلام.

إلا أن ذلك لم يحل دون وعي القاعدة الشعبية لسلبية هذا البعد، وهذا ما يفسر تحول عرب بني هلال الذين استعانة بهم القوى الحمادية لضرب المرابطين من قابليتهم العدوانية إلى حماسة جهادية تتبنى مقولة التوحيد التي تجسدت في مشاركتهم الفعالة مع المرابطين في معارك الأندلس.

ولحسن الحظ فإن العلاقة بين المرابطين وآل زيري بالمغرب الأدنى ظلت حسنة على العموم، خاصة في عهد المعز بن باديس الذي حكم بين 453-501هـ/1062-1108م. وحسن هذه العلاقة لا يفسر بانتماء الزيريين إلى البربر، بل لعدم وجود طرق تجارية محاذية لتخوم البلدين. وقد اعتبر أحد الدارسين، الرسالة الموجهة من طرف يوسف بن تاشفين إلى أمير المهدية بعد انتصار الزلاقة محاولة أولية على طريق وحدة المغرب العربي.

يتبين من خلال ما سبق أن آل حماد بالمغرب الأوسط هم المسؤولون عن عدم إنجاز مشروع الوحدة الذي تبناه المرابطون، ويُعزى ذلك لعدم تفهمهم إياه واعتباره عملاً توسعياً. ويتفرع عن هذا التحليل تساؤل آخر وهو: لماذا لم يواصل المرابطون زحفهم نحو المشرق، مفضلين الشمال فتعثروا في توحيد المغرب العربي؟ مع العلم أن إمارة بني حماد كانت من الضعف والهوان ما يجعلها لقمة سائغة في أيدي المرابطين؟[1].

تباينت استنتاجات الدارسين بهذا الصدد، فالبعض ذهب إلى حل الإشكالية انطلاقاً من مقولة الغلبة، ففسر ذلك بأن الحماديين تمكنوا من درع قوى الملثمين التي اضطرت إلى التراجع[2]،

[1] - السامرائي: علاقات المرابطين، ص313، 316.
[2] – السامرائي: علاقات المرابطين، ص308.

بينما عزا البعض ذلك إلى عامل عنصري يتجلى في إحساس بالتضامن العرقي مع صنهاجة الشرق[1]، في حين رد طرف ثالث ذلك إلى استغاثة أمراء الأندلس بالمرابطين[2].

ربما كل هذه التفاسير لا تقوم على أساس صحيح، فعامل القرابة لم يحل دون اصطدام الجانبين مراراً كما مر من قبل، بينما يظل القول بتصدي الحماديين للمرابطين وإيقاف زحفهم قولاً يحيد عن الصواب، وآية ذلك أن قوة هؤلاء كانت من الأهمية ما يمكنها من سحق الحماديين بسرعة جارفة[3]، خاصة أن بعض القبائل الزناتية في المغرب الأوسط أصبحت تواليهم وتخطب ودهم. كما أن الخطر النصراني كان يحدق بالإمارة الحمادية، ناهيك عن قبائل بني هلال التي كانت غصة في حلقها. ومعلوم أن يوسف بن تاشفين تمكن من حصد زهرة القوى المسيحية في معركة الزلاقة، فكيف بالحماديين وهم في ذلك الموقف من الضعف والخور؟ أما سياسة المهادنة التي يجعلها البعض سبباً في هذا الانكفاء، فإنه حتى لو افترضنا صحة ذلك جدلاً، فإن القوى المرابطية لم يكن بإمكانها الالتزام بها نظراً للموقف الحمادي المتسم بالنزعة العدائية.

وربما التفسير السوي ما فطن إليه أحد الباحثين، حين أشار إلى أن غزوات بني هلال التي حولت الطرق التجارية نحو الغرب، جعلت المغرب الأقصى يدخل شبكة اقتصادية إفريقية غربية حتمت عليه تكثيف علاقاته التجارية مع أوروبا في وقت ازدادت فيه حاجت هذه الأخيرة إلى المغرب، ومن ثم تحويل الاتجاه من الشرق إلى الشمال. كل هذا ينهض حجة على أن عملية توحيد المغرب العربي الإسلامي لم تكن ممنهجة بطريقة موضوعية وسليمة[4].

(1) - محمود: قيام دولة، ص206.
(2) - نصر الله: دولة المرابطين، ص62-63.
(3) - محمود: قيام دولة، ص206.
(4) - القبلي: مراجعات حول، ص16-17.

ويمكن أن نتساءل كذلك حول ما إذا كانت المتاعب الداخلية قد لعبت دوراً أساسياً في تعثر المشروع الوحدوي؟

إن الكتب تجيب عن هذا التساؤل بكل وضوح. فثورة المهدي بن تومرت[1]، وانتفاضات المدن الأندلسية[2]، جعلت الروايات العربية تذكر بمرارة أن علياً بن يوسف بن تاشفين بعث إلى ولده تاشفين بالأندلس يطلب منه العودة فوراً للمغرب بجيوشه وعتاده وأمواله[3]. وهو ما يعني عملياً انكفاء المشروع الوحدوي وتقوقعه إن لم نقل بداية فشله في ظل التجربة الأولى.

وأيضاً يمكن القول بأن حدث الغزوة الهلالية يفسر جانباً من هذا التعثر في التجربة المرابطية؟ الواقع أن دور بني هلال في مسار الوحدة المغربية يبقى مشوشاً ومختلطاً. ويبدو أنه ذو وجه مزدوج. فلا سبيل لإنكار ما قام به هؤلاء من دور هدّام حيث خربوا الطرق التجارية وأفسدوا الحقول وساهموا في إقامة إمارات قزمية متصارعة[4]. إلا أنه لا يمكن كذلك نفي الوجه الثاني من العمل الهلالي، وربما هو عمل إيجابي، وفي صالح تمتين الوحدة المغربية وتدعيمها، فقد اختلطوا بالأهالي، وساعدهم في ذلك الزواج وصلات القرابة التي نمت وترعرعت على مر الأيام. وساعد هذا الاختلاط التشابه بين حياة العرب الهلالية وبعض القبائل البربرية خاصة تلك التي تحترف الرعي، فضلاً عن اتفاقهم في بعض الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وحفظ العهد. كما أن اللغة العربية التي أدخلوها كانت عامل توحيد أضيف إلى العامل العرقي لتكوين وبناء الوحدة بين أقطار المغرب العربي[5]. يضاف إلى ذلك مشاركتهم في عملية توحيد المغرب مع الأندلس.

---

(1) - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص217-235.

(2) - انظر ترجمة عن بعض ثوار المدن الأندلسية. انظر. ابن سعيد، علي بن موسى ت. 685هـ/1286م: المُغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1964م، ج1، ص57، 60-61.

(3) - ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص31.

(4) - حسن: الحضارة الإسلامية، ص308.

(5) - السامرائي: علاقات المرابطين، ص409-410.

والسؤال الذي يطرح نفسه ما هو موقع وعي المغاربة من هذا المشروع الوحدوي؟

إن الحديث عن وعي وحدوي في هذه المرحلة الباكرة يعد نوعاً من المجازفة. ولكننا نستطيع القول إنه كان وعياً وجدانياً نابعاً من موقف عاطفي مجرد. ففكرة الوحدة ظلت حاضرة في مشاعر المغاربة وممارساتهم، بل إن ثقافتهم حملت أكثر من دلالة، وهو ما يمكن إعطاء الدليل عليه من غير صعوبة. ويكفي الوقوف على إنتاجات المغاربة لنتأكد من ذلك. ولنأخذ على

سبيل المثال النوازل الفقهية، فقد كان القاضي المشهور ابن رشد الجد ت. 520هـ/1127م[1]، الذي يقيم في الأندلس، ورغم ذلك كان يمطر بوابل من طلبات الإفتاء أتية من القيروان وسبتة ومراكش وبجاية وغيرها من مدن المغرب الإسلامي. فالفرد العادي لم يكن يشعر بالغربة في محيط هذا المغرب الكبير، بل على العكس فإن شعوره بهذا الانتماء جعله لا يميز بين فقيه أو قاضي يعيش في مراكش أو المهدية أو قرطبة. ولعل هذا الشعور هو ما ترجمه فقيه متأخر[2]، جمع هذه النوازل في كتاب سماه المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. وفي هذا العنوان أكبر دليل على هذا التواصل الاجتماعي والديني في وعي المغاربة. وكان يكفي أن تُغير القوى النصرانية وغيرها على منطقة من هذا المغرب الكبير حتى تهب لصدها كافة قوى جماهير المغرب الإسلامي.

يتضح أن التجربة الوحدوية المرابطية مثلت التجربة الأم وأنها كانت تحمل عناصر المناعة والخلل في آن واحد. فتجذّرها في الذات الشعبية، وانصهارها في وعاء المد الوحدوي

(1) - هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي، قاضي الجماعة بقرطبة ومفتيها. روى عن أبي علي الغساني، وأبي مروان بن سراج، وخلق، وكان من أوعية العلم. له تصانيف مشهورة، عاش سبعين سنة. توفي سنة 520هـ/1126م. انظر. الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد ت. 599هـ: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، ط1، 1989م، ج1، ص74؛ العبر: ج2، ص414؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 373-374؛ شذرات الذهب: مج6، ص102.

(2) - هو أبو العباس أحمد بن يحيى الونشرسي المتوفي بفاس سنة 914هـ/1508م، وقد نشر الكتاب نشراً حديثاً بعناية وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بالمملة المغربية وثم طبع في بيروت سنة 1981م في 12جزء وجزء خاص بالفهارس.

الإسلامي، وتسلحها بمشروع إيديولوجية إصلاحية، وتدعيمها بقاعدة مادية تجلت في سيطرة كلية على طرق التجارة بعيدة المدى، فضلاً عن إفلاس النظام السياسي القبلي– الأسروي– وحضور عامل قرابة الدم، كانت عناصر تعطي الفكرة الوحدوية ديناميتها وتمدها بصفات الاستمرارية والدوام. غير أن هذه كانت تحمل في ذاتها أخطاراً لايخفيها النجاح المؤقت الذي حققته التجربة. فالأزمات البنيوية التي عرفتها الدولة المرابطية كقوة توحيدية، وتطرف السلطة الدينية، وتفريغ الإيديولوجية المالكية من مضمونها الوحدوي والإفلاس على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، وعدم تكسير القشرة القبلية وتوليد طبقة اجتماعية منسجمة وقادرة على فرض سيادتها، فضلاً عن موقف الدول المجاورة التي لم تدرك عمق البعد الوحدوي، ففضلت إشهار الحرب الباردة رداً على زعامة المغرب الأقصى، ولم تستجب بالتالي للتطلعات الوحدوية[1].

4– خلاصة:

وهكذا نرى بأن هناك عدة دول حاولت القيام بوحدة تشمل فيها المغرب العربي ولكنه لم يكتب لها النجاح، ومن هذه الدول دولة المرابطين وعلى الرغم من أن المشروع الوحدوي حاضر في ذهن المغاربة على الصعيد الرسمي والشعبي، ولكن هذا المشروع الوحدوي تعرض لمقاومة، من بعض الدول ولاسيما الحماديين الذين وقفوا في وجه هذا المشروع لأنهم لم ينظروا له إلا نظرت توسع للدولة المرابطية الأمر الذي جعل يوسف بن تاشفين يوجه نظره نحو الأندلس وبالفعل تمكن من ضم الأندلس والتخلص من دول ملوك الطوائف وذلك بموافقة علماء المشرق والمغرب.

[1] - بوتشيش، إبراهيم القادري: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط1، 1994م، ص63-86.

5- خاتمة:

استقرت حصيلة الدراسة التي انجزت حول المشروع الوحدوي المرابطي المغربي على النتائج والاستنتاجات التالية:

1. أول ما يمكن أن يلاحظ في المشروع الوحدوي المرابطي كونه حاضر على الصعيد الرسمي والشعبي على السواء.
2. أما على الصعيد الرسمي فقد جعلت الدولة المرابطية مشروع الوحدة على رأس برنامجها السياسي، وعلى الصعيد الشعبي فإن هاجس الوحدة كان حاضراً شعوراً وممارسة.
3. يستقرأ من الدراسة أن من المظاهر التي تفصح عن تجذر هذه الوحدة الشعبية، الحج إلى الديار المقدسة، والتجارة التي شكلت إحدى الأدوات التي عكست هذا المنظور الشعبي للوحدة، فالعداء السياسي بين بني حماد والمرابطين لم يؤثر في جماهير التجار، كما تتجلى مظاهر التوحد الشعبي كذلك حتى في الأطعمة، وفي التصوف الذي يمثل معطى ثابت من ثوابت الوحدة المغربية على الصعيد الشعبي.
4. يستشف من الدراسة بأن المشروع الوحدوي المرابطي لم يكن بمعزل عن منظومة وحدة دار الإسلام وخلافة الشرق.
5. تنم الدراسة على أن المشروع الوحدوي المرابطي انطلق أول مرة من الجنوب، ومن طرف الأمازيغية المحلية، عكس المحاولات السابقة التي انطلقت من الشرق.
6. من الملاحظ أن المشروع الوحدوي المرابطي تسلح بإيديولوجية إصلاحية تمثلت بالمذهب المالكي.
7. من جملة الملاحظات التي يمكن أن تذكر بصدد المشروع الوحدوي المرابطي هو أن هذا الأخير ارتكز على عامل لا يمكن انكاره ويتعلق الأمر بقرابة الدم فبنو حماد هم أصلاً بنو عمومة القبائل الصنهاجية.

8. تنم الدراسة عن انشغال القوى المرابطية بردع تطلعات الصليبية وتحجيم دور النصارى إلى حد أنها لفظت أنفاسها وهي في زهرت شبابها.
9. يستشف من الدراسة بأن هناك عدة عوامل اجتمعت وأدت إلى تعثر المشروع الوحدوي المرابطي.

6- قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

1.ابن الآبار، محمد بن عبدالله ت.658هـ: التكملة لكتاب الصلة، تح: عبدالسلام الهراس، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1995م.
2.ابن الآبار، محمد بن عبدالله ت. 658هـ: المقتضب من تحفة القادم، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ط2، 1983م.
3. الأتابكي، يوسف بن تغري بردي ت. 874هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر، ط1، 1935م.
4.ابن الأحمر، إسماعيل ت. 807هـ: بيوتات فاس الكبرا، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
5.الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله ت. 564هـ: المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبع بريل، مدينة ليدن المحروسة، د.ت.
6.البكري، أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز ت. 487هـ: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

7.التميمي، محمد بن عبدالكريم ت. 604هـ: المستفاد في مناقب العباد، بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح، محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ط1، 2002م.

8.ابن الجزري، أبي الخير محمد بن محمد ت. 833هـ: غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 2006م.

9.ابن خاقان، الفتح بن محمد ت، 529هـ: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس، تح: محمد علي شوابكة، دار عمّار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م.

10.ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد ت.776هـ: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تح:أحمد مختار العبادي– محمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

11.ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد ت.776هـ: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامي. تونس، ط1، 1912م.

12.ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت. 808هـ: مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى دوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت– لبنان، 2001م.

13.ابن خلدون، عبد الرحمن ت. 808هـ: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت– لبنان، 2000م.

14.ابن خلكان، أحمد بن محمد ت. 681هـ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

15.الدباغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ت. 696هـ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة – مكتبة الخانجي، تونس– مصر، ط2، 1968م.

16.ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ت.1092هـ: كتاب المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، تونس، ط1، 1967م.

17.الذهبي، محمد بن أحمد ت.748هـ: العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1985م.

18.الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ: معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، تح: طيّار آلتي قولاج، د.د، استانبول، 1995م.

19.الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، ط1، 1995م.

20.الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان ت. 748هـ: دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م.

21.ابن أبي زرع، علي الفاسي ت. 726هـ: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1999م.

22.أبي زكرياء، يحيى بن محمد ت.782هـ: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، طبع بمطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903م.

23.ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي ت. 617هـ: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م.

24.ابن سعيد، علي بن موسى ت. 685هـ: المُغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1964م.

25.ابن سعيد، علي بن موسى ت. 685هـ: رايات المبرزين وغايات المميزين، تح: محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1987م.

26.الصومعي، أحمد التادلي ت.920هـ: كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تح: علي الجاوي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996م.

27.الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد ت. 599هـ: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري– دار الكتاب اللبناني، القاهرة– بيروت، ط1، 1989م.

28.ابن عبد الملك، محمد بن محمد المراكشي ت. 703هـ: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2012م.

29.ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي ت.695هـ: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س.كولان– إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت– لبنان، ط5، 1998م.

30. العزفي، أبو العباس أحمد بن محمد ت. 633هـ: دعامة اليقين في زعامة المتقين « مناقب الشيخ أبي يعزى»، تح: أحمد التوفيق، مطبعة المعارف، الرباط، د.ت.

31.ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد ت. 1089هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبدالقادر الأرناؤوط– محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ط1، 1989م.

32.ابن فرحون، ابراهيم بن علي المالكي ت. 799هـ: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة، د.ت.

33.ابن القاضي، أحمد الكناسي ت. 1025هـ: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.

34.القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السبتي ت. 544هـ: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: سعيد أحمد أعراب، د.د، تطوان، 1982م.

35.ابن قنفذ، أحمد الخطيب القسنطينى ت. 810هـ: أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط،1965م.

36.ابن الكردبوس، عبدالملك التوزري ت. بداية القرن السابع الهجري: تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان، تح: أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م.

37.مؤلف مجهول ت. القرن السادس الهجري: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب، مطبعة جامعة الاسكندرية، د..م، 1958.

38.مؤلف مجهول ت. القرن السادس الهجري: كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م.

39.مؤلف مجهول: مفاخر البربر، تح: عبدالقادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2005م.

40.المقري، أحمد بن محمد ت. 1041هـ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان، ط5، 2008م.

2– المراجع:

1.أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الخانجي، القاهرة، ط2، 1958م.

2.أكنوش، عبد اللطيف: تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، دار إفريقيا الشرق، د.م، د.ت.

3.بل، الفرد: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط3، 1987م.

4.بوتشيش، إبراهيم القادري: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، بيروت– لبنان، ط1، 1994م.

5.حركات، ابراهيم: المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م.

6.حسن، علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م.

7.الزركلي، خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت– لبنان، ط15، 2002م.

8.سالم – العبادي، عبد العزيز– أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، 1969م.

9.السامرائي، خليل ابراهيم: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، 1985م.

10.شلبي، هند: القراءات بإفريقية من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العربية للكتاب، 1983م.

11.ابن عجيبة، أحمد بن محمد الحسني ت. 1224هـ: أزهار البستان في طبقات الأعيان، تح: عبدالسلام العمراني الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1971م.

12.عنان، محمد عبدالله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1964م.

13.القبلي، محمد: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر– الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م.

14.الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس ت. 1345هـ: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: محمد حزة بن علي الكتاني، د.د، الرباط – المغرب، 2005.

15.كنون، عبدالله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، د.د، طنجة، ط2، 1960م.

16.محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1956م.

17.مراد، يحيى: معجم تراجم أعلام الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 2004م.

18.موسى ، عز الدين أحمد: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، 1983م.

19.الناصري، أحمد بن خالد ت. 1315هـ: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية، تح: جعفر الناصري– محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997م.

20.نصرة الله، سعدون عباس: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية، بيروت– لبنان، 1985م.